القصص

قصة سورية واقعة

النهـــاية ....

للأستاذ علي الطنطاوي

في ليلة قمراء من شتاء ١٩٢٩

بينما كان حيّ المهاجرين (في دمشق) يرفل في حلل الرخاء والترف، ويجر أثواب الدعة والنعيم، ويثب من الطرب، ويمشي على الذهب ... وبينما كانت قصوره البُلْق تشتعل بالكهرباء، فتأتي في الليل بالنهار، وشوارعه المتوازية الصاعدة إلى سرّة الجبل تمايل أشجارها تمايل العروس، وتلوح أنوارها للعين، كأنها في تسلسلها وانتظامها حبال اللؤلؤ، ويسبغ عليها القمر حلة منسوجة من خيوط النور، وتتراقص على نسيمها المعطار نغمات الحاكي والمذياع ...

... كان في الشارع العام الممتد على سفح الجبل، شيخ همّ، أبيض اللحية، متفكك العظام، مقوس الظهر، قد أخنى عليه الزمان، وحطمه الدهر، يسير منفردا يتوكأ على عصا، لا أنيس له إلا ظله الذي يمشي معه، ينمو ويتطاول كلما ابتعد عن المصباح، ثم يضعف ويختفي، ثم يولد ظلّ جديد. ويبدأ قوياً واضحاً، كما تنمو الكائنات وتقوى، ثم يدركها الضعف، ثم تبيد لتأخذ مكانها كائنات أخرى أقدر منها على العيش، وأحق منها بالحياة ... حتى بلغ (قصر الوالي)، هذا القصر الأبيض الفخم، المعتزل وسط الجنائن الواسعة، الذي يخطر أمامه الجندي الذي يحمي (حمى رئاسة الجمهورية ...) فوقف على الدرابزين[1] وجعل يحدق في القصر ويتأمل شرفه ونوافذه المضيئة، ويستمع الى صوت الحياة الرغدة الناعمة ينبعث من غرفه وأبهائه، حتى علق بصره بغرفة بعينها ينبثق منها ضوء شديد، فجعل يحدق فيه حتى زاغ بصره وعراه شبه دُوار، فجلس على طرف الدرابزين وأمسك بحديده البارد، وألقى برأسه على كفه، وانطلق يفكر ... يفكر في دنيا بعيدة ... بعيدة جدا، قد طم عليها لجّ النسيان؛ يعالجها بالذكرى، فيراها ينحسر عنها الماء، وتبدو له شيئاً بعد شيء، وتعرض عليه كما يعرض (فلم سينمائي) غريب عنه لا عهد له به، ولا صلة بينه وبينه، وان كان من القائمين به، والممثلين فيه ...

... ففتح عينيه، وراح يحدق في الظلام

***

رأى دمشق في أواخر القرن التاسع عشر — وهي ولاية عثمانية — ورأى ناظم باشا (والي دمشق) وقد أصبح ذات يوم لقسَ النفس ضيق الصدر، فأقبل على عمله فلم يجد له عزماً. فعمد إلى المطالعة والتسلية فلم يزد إلا ضيقاً. فأمر أعوانه أن يتمموا له منزلاً جميلاً مشرفاً، فينصبوا فيه خيامه، ويعدّوا فيه مجلسه، ليصطبح فيه، وينزله بقيّة يومه. فتسابقوا إلى طاعته، وتباروا في خدمته، فلم تكن إلا ساعة واحدة حتى كان المجلس معداً. فلما جلس واطمأن نظر فرأى منظراً عجباً، ما رأى له مثيلاً وقد جاب أنحاء المملكة: رأى كأن أمامه متحفاً للطبيعة فيه من كل مشهد صورة، ومن كل لون مثال؛ فحواليه تلال وسفوح مالها حدّ، وعن يمينه جبال صخرية قائمة فيهـا روعة وعليها جمال، ومن أمامه (يزيد) يجري زاخراً مزبداً يحيط بهذه السفوح ويحدق بهـا، وهو يلمع في شعاع الشمس فتخاله العقد مستديراً بجيد حسناء، ومن وراء النهر الغوطة الخضراء، إحدى عجائب الدنيا، تمتد إلى نهاية الأفق، والمزّة وصحراؤها الواسعة، وسهولها الفيح، فلم يكن يشاء أن يرى جبلاً ولا نهراً ولا خضرة ولا بادية إلا رآها، والسماء تبدو حيال الأفق كأنها البحر، يالروعة البحر في دمشق . . !

---

(١) معربة من قديم، وفي العربية بمعناها: الملفق

ودمشق تظهر من بعيد ، وهى نائمة على هذا البساط السندسى الأزلى ، عليها غطاء من نسج الغصون موشى بالزهر ، وقد هبّت عليها نسائم الصباح الرخيّة ، تمسّ وجهها مساً رفيقاً ، وتسقسق فى أذنيها العصافير توقظها برقة ولطف ، وهدر فى مسامعها بردى يهزّها كى تفيق ...

والجامع الأموى يظللها بقبّته المشمخرة العالية ، ومآذنه الطويلة السامقة ، وبنائه الضخم الهائل ، الذى يحمل أعباء القرون الثلاثين التى مشت عليه ، مذ كان معبداً وثنياً — إلى أن صار — كنيسة نصرانية ، إلى أن سما فكان مسجداً إسلامياً ، يجهر فيه بالأذان ، فيرنّ صداه على ضفاف الكنج ، وشاطئ اللوار ، ويقوم الناس إلى الصلاة صفاً واحداً ممتداً من قلب الهند إلى قلب فرنسا

فانتفى عنه الهمّ ، وطار به السرور ، فسأل من حوله :

— ما للدمشقيين لا يبنون هنا ، ويقيمون على هذا السفح حيّاً لا يكون مثله مصيف فى الدنيا ولا مشتى ؟

فما بقى منهم إلا من وثب الضحك إلى شفتيه ، وهمّ بقهقهة مجلجلة ، ولكنه أمسك حرمة للوالى ، وحياء منه ، وقالوا له :

— ولكن يامولانا ، من يرضى أن يقيم فى هذا المنفى ويسكن فى جبل أجرد ، لا ماء فيه ولا نبات ، ويسافر كل يوم ساعة كاملة ، ليصلى فى الأموى ، أو ليرد السوق ؟

فأطرق الوالى يفكر ويجيل عقله الكبير وعزمه النافذ فى كافّة الممكنات ليجعل من هذه السفوح القاحلة أجلّ حىّ فى أجل مدينة ، ويحيل هذه الرمال رياضاً تجرى من تحتها الأنهار !

* * *

ثم انقطع الفلم ودار أبيض يحمل أياماً وسنين خالية لا شىء فيها ثم وضحت فيه صورة ...

فاذا هو يرى حادثة كريد (اقريطش) حين غدرت أوربا — على عادتها دائما — بالمسلمين ، وشرّدت أهل الجزيرة من آمن منهم بالله واليوم الآخر بين سمع الأرض وبصرها ، فدعا بهم ناظم باشا والى الشام وجمعهم وبنى لهم من أموال الدولة بيوتاً صغيرة متشابهة ، متشابهة كمحطات القرى ، ضيقة كغرف الخفراء ، بناها على سفح قاسيون فكان لهم عصمة ومأوى ، وكانت للحى الذى يحلم بذرة ونواة

* * *

ثم استدار الفلم وإذا دمشق خارجة تستقبل امبراطور ألمانيا وقد جاء يزورها زيارته المشهورة ، فعرشت له الحكومة الحرير وأوطأته الديباج ، فلم يطلب من ناظم باشا إلا أن يزيره الجبابين العظيمين والأثرين الخالدين : قاسيون ، وقبر صلاح الدين ! فانطلق العملة والبناءون يقيمون له على سفح قاسيون (المسطبة) التاريخية التى تدعى الى اليوم والى الغد (مسطبة الامبراطور) ويمهدون له الطريق الى مقبرة صلاح الدين فى الكلاسة

وهناك فى أصل جدار الأموى الشامخ ، وعلى هذه العتبة الواطئة وقف امبراطور ألمانيا ، وأعظم ملوك العصر ، مطاطئ الرأس خاشعاً خاضعاً ، ثم ركع على ركبتيه ، ثم سار حبواً حتى وصل الى جانب القبر ، فوضع عليه اكليلاً من الزهر ، وقال :

— هذه لك يا سيد أبطال العالم(١)

ثم أمّ قاسيون ، فلما استوى على (المسطبة) ورأى هذا المنظر استخفه الطرب فصاح :

— ما على الأرض أجل من دمشق ! ما على الأرض أجل من دمشق !

فصحت عزيمة الوالى على انشاء الحى ، وبادر الى الأمر ببناء هذا (القصر الأبيض)

* * *

واستدار الفلم فرأى ناظم باشا قائماً فى شرفة القصر ، يتأمل فى الوفود الذين أتوا ساحة القصر ، ليكرموا الرجل الذى تغلبت ارادته الماضية على الصخر الأصم فخرقته ، وعلى البعيد النائى فقربته ، حتى تم مد القناة العظيمة من الفيجة الى دمشق لتسقى أهلها ، وتسيل فى هذا الحى الذى قام ليكون زينة دمشق وعروسها . . .

ورن فى أذنيه صوت الخطيب وهو يقول للوالى :

« ... ... إن دمشق التى أحببتها وسقيتها وعمرتها ، لن تنسى فضلك أبدا : ولن تحيد عن حبك واكبارك ، وسيظل منقوشاً على أفئدة أبنائها الى آخر الدهر هذان الاسمان العظيمان

(١) ذلك لأن الامبراطور الشاب كان رجلا ، لا كذلك الجنرال الذى دخل دمشق محاربا ، فأم المقبرة من فوره ، وولج شاهراً سيفه ، مصمراً خدعه ، حتى قرع بالسيف أعواد التابوت ، وقال مهدداً الخشب ...

— نحن أحناد جودفروا ، فأين أحنادك يا صلاح الدين !

ولا كالجنرال الآخر الذى وقف فى كنيسة القيامة بالقدس ، وقال :

— الآن انتهت الحروب الصليبية ، أنا آخر قائد صليبى !

اسما مصلحَىْ دمشق : مدحت باشا . وناظم باشا »

* * *

ثم انقطع (الفلم) وتبدد الحلم ، وأحس الشيخ بيد قوية تقبض على كتفه ، فعاد الى نفسه ورفع رأســه فاذا الجندى القائم على باب القصر ، يصيح به :

ماذا تصنع هنا أيها المتشرد ؟

ثم يكسعه ويضربه أم كيسان[1] ، فيقوم الشيخ ورأسه الى الأرض من غير أن ينطق بكلمة ...

عاد الشيخ أدراجـه يطوف الحى ، ويدخل من شارع الى شارع ، فلا يعرفه أحـد ولا يفتح له باب ، حتى اذا نال منه الجوع ، وبرح به التعب ، رأى زقاقاً ضيقاً فولجـه ، حتى اذا انتهى الى بيت حقير من بيوت المهاجرين الأولين ، وقف ينظر اليه ، وتبرق عيناه كأن مرآه يذكره بشىء ، ثم مد الى حلقـة الباب يداً مرتجفة فقرعه قرعة ضعيفة ، ولبث ينتظر ؛ فلما لم يرد أحد عاد فقرعه وشـدد القرع ، وسكت فلم يسمع الا صدى أصوات الغناء والطرب تهبط عليه من أعالى الجـدران ، تهزأ بالفقراء ، وتسخر من الحياة ، فعاد يخبط خبطاً قوياً وينادى :

— كريتلى زاده ... كريتلى زاده محمد افندى ...

فتحركت عجوز من أقصى الدار ، وصاحت :

— من هذا الذى يسأل عن محمد افندى ؟

وخرجت تدبّ على عصاها حتى بلغت البـاب فنظرت فى الظلام وصاحت صيحة الفزع :

— من هذا الذى يسأل عن الرجل الذى مات منـذ خمس عشرة سنة

فلما سمع الشيخ ما تقول وجم ولم ينطق

— فأقبلت نحو الضوء ، حتى إذا اقتربت من الرجل رجعت تصيح بصوت مرعب :

— من أنت ؟ قل لى من أنت أيها الرجل ؟ ماذا تريد ؟

— قال : أنا يا حاجة صفية ، أنا ؟

— من أنت ؟ تعال ، تعال إلى النور حتى أراك ، فلما رأته واستبانته ، صاحت :

— آه

— قال : هل عرفتنى ؟

— قالت : آه كيف لا أعرفك ياسيدى ، ولـكن ... كلا كلا . أنا واهمة ، هذا مستحيل . قل لى حالاً من أنت ؟

— أنا ناظم ... ذاك الذى كان يدعى يوماً ما ناظم باشا ، ذاك الذى كان والى الشام ... ألا تذكرين ياصفية كيف كنت تلعبين فى رحبة القصر وأنت صبية صـغيرة ؟ وكيف كنت تتسلقين الأشجار وتطاردين الغزال الذى كان فى الحديقة ؟ هل تذكرين ؟... حتى إذا مللت وتعبت عدت مع أبيك محمد افندى الى الدار

— آه يا مولاى آه ! اذن أنت هو ! لم أكن غلطة . قل لى ياسيدى أين أنت ؟ وما جاء بك ؟ لا لا أدخل أولا ! أهلاً وسهلاً ، ليس عندى شىء أقدمه اليك ، ليس عندى شىء

وانطلقت تبكى ...

— إنى عجوز فقيرة ليس لها الا الله ، لم يعد يسأل عنا أحد بعدك . انى سأموت فقيرة تحت أنقاض ذهب الجيران ، وأختنق جائعة برائحة اللحم . ان هذه القصور ستبتلع كوخى الذى لم يبق غيره . . .

وألحت فى البكاء ...

انى لا أستطيع أن أصنع لك شيئاً ، آه ليتنى مت قبـل أن أراك يا مولاى على هذه الحال

فمسح الباشا دموعه ، وقال لها :

— ولـكنى لا أحتاج شيئاً . أنا فى نعمة ، وإنما جئت أزورك . والآن وداعاً ...

فلما ابتعد فتش جيوبه ، وقلبها كلها ، فلم يجد إلا فرنـكين كان يدخرها لعشائه فدفعهما اليها ، ومشى قبـل أن يسمع ما تقول :

عاد يطوف فى الحىّ يخرج من شارع الى شارع منفرداً منكراً ، ولقد فارق دمشق وهو ربها وسيدها ، وصاحب الأمر والنهى فيها ، ولـكن هذه الأعوام التى كرّت سريعـة محملة بالاحداث الجسام قد بدّلت كل شىء

لقد انفجر بركان الحرب ، فهدّ هـذا الفلك العظيم ، فلك الخلافة الاسلامية ، فتناثرت نجومه وكواكبه ، وانطفأت شمسه وأظلمت نيّراته ، وعبست مكة للقسطنطينية وبسمت للنـدن ، وصالحت الحلفاء ، وقاتلت الخلفاء ، وولد استقلال سورية فى القصر المنيف على بردى ، ومات طفلاً فى الصحراء القاحـلة من

---

(١) كسعه وضربه أم كيسان ، هو أن يضربه بقدمه على مقعدته

ميسلون ، وكان الانتداب وكانت ليلاته الحالكات

وذهب جيل من الناس كان يعرف الباشا حق المعرفة ، وجاء جيل جديد ينكره أشدّ الانكار

فنفض الباشا يده من كل شيء ، وانحدر إلى الشارع الأعظم على سفح الجبل ، فجلس على حجر قبالة القصر الذي بناه ، وكان صاحبه ومولاه ، فطرد الليلة عنه كما تطرد الكلاب . وأسلم رأسه إلى كفيه ، وراح يفكر في غير شيء ...

فما نبهه من ذهوله إلا ولد يقفز بقبقابه على بلاط الشارع ، فاستوقفه يسأله :

— ما اسم هذا الشارع يا ولد ؟

فارتاع الولد وفرّ ، حتى إذا ظنّ أنه قد فاته ، صاح به :

— ألا تقرأ اللوحة يا أعمى ؟ هذا شارع ناظم باشا

فابتسم الباشا ابتسامة صفراء وعاد الى صمته ، وهبت الرياح فلم تلبث أن أنشأت سحابا حجب القمر ، فشمل الشارع ظلام رهيب

ومرّ رجل فألقى على الباشا نظرة واحدة ، ثم سار في طريقه ينحدر في طريق البساتين ، حتى إذا ابتعد عن العمران رفع عقيرته يتغنى بصوت شجي محزن :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالي والجدود العواثر
فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة ... كذلك عضتنا السنون الغوابر

وناظم باشا يصغي اليه ، وقد هاج في نفسه عواطف هائلة كادت تنسف كيانه نسفاً ، حتى ابتعد الصوت ونأى ، ثم ابتلعه السكون

فقام ناظم باشا يجرّ رجله ليغادر دمشق التي نسيت احسان المحسن ، كما تنسى (دائماً) إساءة المسيء ، ليذهب فيموت حيث لا يعلم به إلا الله

واشتدت الرياح وصفرت صفيراً مرعباً ، وهطل البرد مجنوناً ثائراً ، بينما كان يسدل الستار الأخير على هذه المأساة ...[1]

علي الطنطاوي

(١) قدم ناظم باشا خير ولاة العثمانيين بعد مدحت باشا ، وأكثرهم في دمشق إصلاحا ، وأعظمهم مآثر باقيات ، قدمها منذ سبع سنين فقيراً محتاجاً ، فلم يحفل به أحد ، فغادرها رحمه الله تعالى يائساً حزيناً !

مأساة من سوفوكليس

٣ ـ أنتيـــجونى

للأستاذ دريني خشبة

— ٩ —

ويرسل الخورس أغنية عن الحب ، وعن خضوع الآلهة والعباد لسلطانه على السواء

تدخل أنتيجونى وحولها حرس

— « سلام عليكم يا رعايا أبى وأمناء مملكته ! شماعة واحدة يا هكيوز[1] الكريم أتزود بها لرحلتى إلى الدار الآخرة فتنير لى ظلمات طريقى ! إنها تكفل لى أن أذهب إلى هيدز والحياة تدب فى قلبى ! أوه ! ألا يتنفس لى فجر حلو بعد اليوم ؟ وقداسى وأفراح عرسى ؟ ألا تملأ أهازيجها سمعى ؟ وهايمون ! ! آه يا حبيبى هايمون ! ! أشيرون[2] وحده سيكون زوجى ... لا أنت يا هايمون الحبيب ... فوق شطئان نهره الفائض بالحمم ! »

الخورس : « أجل يا بُنية ! لكنك تذهبين ثمة لا كما يذهب الموتى ، بل تذهبين وفى قلبك الحياة تنبض وتنبض ... وتذهبين باختيارك لا برغمك ، لأن سيفاً لا يغمد فى أحشائك ، ولأن مرضاً لم يلم بك ولم يسلمك للردى ! »

أنتيجونى : « هيه ! ... لى أسوة بابنة تنتالوس[3] ، وستهبنى الآلهة نعاسا فلا أحس شيئاً »

الخورس : « ولكنها ربة وابنة إلـه عظيم ! »

— « ويحكم يا رعايا أبى ! أتستخفون بى حتى فى طريقى إلى هيدز ؟ ألا يروعكم ذهابى إلى القبو المظلم الذى حُوِّل من أجلى إلى مقبرة أحياء ... أتجرع فيه غصص الردى قطرة فقطرة ! ! يا لها من موتة ! ألا من لشبابك يا أنتيجونى ؟ !

— « تجلدى يا فتاة ! إن جدود أبيك العوائر تكتسحك فى طريقها ! ! »

(١) اسم من أسماء أبوللو إله الشمس

(٢) إله نهر من أنهار الجحيم

(٣) نيوب التى أسخطت أبوللو وديانا فقتلا أبناءها ولما استجدت بالآلهة حولتها إلى صخرة فوق قمة جبل وفى حضنها ابنها الأخير الذى تحجر معها